مواقف إزاء التضحية

بقلم
طارق الشريف

التضحية اختبار وجودي يعيشه المناضل ، ويرتبط كليا بالتمرد الذي يختاره الثائر ، على اعتبار ان الانسان المتمرد الذي يرفض قيم واقعه السيء ، ويتطلع لقيم اخرى يجدها اكثر تحقيقا لحكم السعادة ، يؤثر هذه القيم على وجوده ، وعلى وجود الاخرين .

والتضحية مرتبطة كليا بالفهم الثوري للواقع الاسود السائد في مجتمع معين متخلخل ، وحماس لاهب لتغيير هذا الواقع عن طريق التمرد .

وهي سخاءكامل وايثار للمستقبل والحلم على الواقع والمأساة ، وعطاء دائب من اجل هذا المستقبل ، اي تفضيل مرتبط كليا بالمعاناة الحقيقية للواقع الاسود ، ومنح الحلم او الفكرة كل شيء ، وايثار لتدمير الواقع المشوه من اجل هذا الحلم .

وما دامت التضحية تفضيلا للمستقبل على الحاضر ، وتعبيرا عن رفض لهذا الحاضر — وان كان يحوي بعض فضائل — فهي ايثار لما هو اكثر اتساعا من الهنيهة او الان ، عن طريق رفض المكاسب الجزئية ، والفضائل البسيطة ، لبلوغ المكاسب الكلية والمطلقة اي الجذرية القادرة على تغيير كل الواقع ، واقامة واقع اخر .

هذا يعني رفض كل حاضر قائم سيء ، وهذا الرفض يفترض ايمانا لا محدودا بالذات ، وثقة بالنفس وسيطرة كاملة على الظروف ، من اجل ان يكون المستقبل كما يبغي المتمرد الذي يرفض الواقع .

الثوري يرفض الواقع المشوه ، لانه يظن بنفسه انه قادر على ان يتخطاه ويتجاوزه لمستقبله ، أي ان يسبق الزمن ، فهو لايركن للواقع بل يحمل مصيره بيده ، ويسير الى حلمه الكامل بتضحيته .

التضحية ايثار عملي اذن ، يهدف من ورائه الانسان لتحقيق حلم ويعمد اليها من اجل الاخر ، فما دامت ايثارا فهي رفض لفكر معينة ، وقد لاتكون خاطئة كليا ، وعلى كل تضحية بسعادة انية من اجل سعادة دائمة ، وفيها يتجلى الثوري الذي يتجاوزالمتمرد به واقعه ، والذي يعبر بالتضحية عن هذا التجاوز .

والذي يتخذ من التضحية طريقا فهو يعيش قضيته ولا يناقشها فكريا ، هو يعانيها ، ولكن المفكر الذي يحلل القضية يناقشها ويحاول تقييمها ، ويهتم بدراستها اكثر من اهتمامه بتقديمها ، وبالتالي يحاول ان يعطي كفرض منهجي احد شقي صراع الواقع والحلم ، وهو الواقع ، أهمية قد لايعطيها الذي يعيش المشكلة . ان المفكر يحاول ان يختبر مدى جدية الفكرة او مدى انسجام الانسان الثائر معها عندما يضحي بنفسه في سبيلها ، ويحاول ان ينقص من قيمتها ، وذلك بدراسة مضمون الحلم الذي يضحي الثائر من اجله ، ويحاول ان يعطي اهمية للحاضر والآن ، ويشكك في امكان الحلم ، ويعلل في النهاية لفرض يضعه ويجعله نقطة انطلاقه ، وهو امكان السعادة في هذا العالم ، لان التشكيك في امكانها في المستقبل ، يوصل للايمان بالحاضر فقط وان كانت بعض جوانبه سيئة ، لان المستقبل لن يحوي السعادة الكاملة ، بل لابد وان ينغص عيش انساننا فيه شيء ، وقد لايكون ذا اهمية بالنسبة الينا اليوم ، ولكن الكمال والطمأنينة في عالمنا لاوجود لهما .

هناك فكرة اساسية ينبغي ان نعيرها كل الاهتمام عند مناقشتنا لمضمون « التضحية » ويمكن ان توضع في الجملة الاتية : « ان الانسان الذي يؤثر الحلم ، اي يتعلق بالماهية الكاملة ، يرفض الوجود الناقص المشوه ، وان كان هذا الوجود يحوي بعض فضائل . وحتى يستطيع جعل الماهية او الحلم وجودا واقعيا ، لابد له من ان يضحي باعداد من الناس هم « الثوار » او « الفدائيون » ليكون العالم اكثر سعادة . »

اذن هناك « تضحية » ينبغي بذلها ، وهناك « قرابين » ينبغي تقديمها ، وقد تكون النتيجة قتل عدد من الاطفال او الابرياء ، اي موت عدد كبير من الناس ، فاذا لم تكن هناك ضمانة اكيدة تجعلنا نثق بعد كل هذه التضحيات بامكان السعادة او بتحقيق الحلم ، فقد نتردد في التضحية بالواقع من اجل المستقبل الذي قد لانثق بامكان السعادة الكاملة فيه ، وأزمة عدم الثقة هذه مرتبطة كل الارتباط بكل التجارب الثورية التي مرت على الانسانية ، والتي امتهنت في اكثرها الكرامة الانسانية ، بقطع النظر عن مدى تأثير هذه الثورة في المجتمع ككل وبالتقدم الانساني كمجموع .

ان الفهم الصحيح لكرامة الانسان واعتباره غاية في حد ذاته يجعل من المستحيل التفكير بالانسان كرقم ضمن مجموعة من الارقام ، فالتضحية ينبغي ان لاتقاس بمقياس مادي يجعل من الانسان عددا ، لان المشكلة ليست رياضية مجردة . فقتل انسان يعني قبر موهبة ، قد تكون تعادل الافا من المواهب ، وقد تكون ذات أهمية تعادل او تزيد على الكسب الحضاري الذي تحصل عليه الانسانية نتيجة

القتـــل .

وهذا الفهم يمكن أن نجده بصوره واضحة عنـــد « باسترناك » في « الدكتور جيفاكو » أذ ان جيفاكو يطرح القضية بشكل واضح وصريح ، ففساد الاوضاع السابقة لثورة « اوكتوبر » وحماسه اللاهب لتغييرها واضح ،لامجال للشك فيه ، ولكن خيبة أمله من النتيجة التي حصلت بعد الثورة ، وبعد كل الضحايا التي قدمت ، قد جعل ايمانـه يتزعزع ، حتى آنه يبلغ موقفا معلقا نتيجة للصدمة التـي خلقتها خيبة الامل ، فهو ليس من انصار الثوار الذين لـم يحققوا حلمه ، وليس هو من انصار بقاء الاوضاع السابقة ، وكلاهما لم يستطع التعبير عن حلمه بالسعادة ، او لم يستطع اي منهما ان يفهم الكرامة الانسانية كما فهمها هو .

ونحن طبعا لانناقش مدى صحة موقف « باسترناك » ، ولكننا نحلل موقفه بغض النظر عن صحة ماذهب اليـــه او عدم صحته ، المهم انه وقف موقفا معلقا بين طرفـــين رفضهما معا ، رفض الخضوع ، ورفض الثورة التي لـــم تعط ماحلم بـــه .

طبعا هذا موقف محير من الاحداث ، ولكنـــه مـوقف واقعي ، فكثيرون ، وعلى الاخص ان كانوا مفكرين مـــن نوعية اخلاقية معينة ، يجدون في الاحداث السياسيـــة والاجتماعية ، ولا سيما اذا كانت على نطاق جماعـــي وتخضع لاهواء عامية لاتهتم كثيرا بالمعنى الانساني للحياة والكرامة ، يجدون فيها مايثير تقززهم وانصرافهم عنها ، وعلى الاخص حينما لايستطيع قادة الثورات توجيهها ومنع سيطرة الغوغاء عليها .

المنطق المادي الذي يعالج قضية التضحية من وجهـــة نظر عملية يخلص نتيجة هي ان موت عدد من النـــاس ضروري لبقاء المجموع ، وهذا قد يستطيع ارضاء بعـض الضمائر ، ولكنه يصعب عليه ارضاء فنان مرهف الاحساس او مفكر ، ينظر للإنسان كفاية في حد ذاته ، فهو ينشـــد الوصول لحل ، ولكنه يبقى متألمـا مادامت النتيجة هـي « موت عدد كبير من الناس » ، والتمزق يبقى ابديا بـين معطيات المستقبل والتضحيات التي قدمت من اجله ، ويظل ينشد ان يصل لنتيجة ، ليستطيع الطمأنينة ، ولا نتيجـة لان من الصعوبة بمكان آن يعرف ايهما يستحق الايثار او ايهما اكثر انسجاما مع اخلاقية الفنان .

قد يعطي الفنان ، ويقبل التضحية في موقف عملـي ، او في تجربة نضالية ، فيجد نفسه في مقدمة من يقدمون انفسهم ، وقد يرتكب الخطيئة ، اي يقتل انسانا بريئـــا في موقف معين ، ولكن الفنان الاصيل حين يعود لنفســه يجد ابدا نفسه في هذا التمزق الداخلي ، بين معطيـــات ثقته بنفسه ، ومعطيات الثائر الذي يرفض التسليم الساذج بالواقع ، وقد يصل التمزق حد التعليق والحياد بينهمـــا ولكنه حياد فعال ابدا وليس بسلبي مقيت .

المفكر او الفنان يعتبر الاخلاق هي التي تعطي الثورة كل مقوماتها ، والاخلاق هنا تعني خير المجموع ــ لا ككل يذوب فيه الافراد ، بل كتلاقي ذوات حره ــ وبالتالي فالاخلاق تفترض ان لايكون ثمن المستقبل الكرامة الانسانية ، لان المستقبل الذي يقبل التضحية بالكرامة هو مستقبل زائف لانه قائم على اساس مشوه .

وتجد هذا التفكير بصورة واضحة عند « كامو » فـي مسرحيته « العادلون » وتمثل شخصية كل من « ستيبان» و « كاليائييف » نموذجين لانسانين من الثائرين ، احدهما وهو « كاليائيف » يرفض ان يدمر مدنية قائمة في سبيل مدنية بعيدة المنال . يرفض ان يصفع اخوته ، واصدقاءمن اجل حلم ، وهو يؤثر ان يبقى ممزقا ، وفي صراع بـــين معطيات عالمين كلاهما لايجد فيه تحقيقا لامانه ، فهو يرفض ان يقتل طفلين صغيرين وجدا في عربة الدوق في اللحظة التي هم فيها بالقاء القنبلة ، وقد اثر ان لايقتل الدوق اذا كان في قتله للدوق قتل لضحايا بريئة ، طفلين لا ذنب لهما ولا جريرة ، بينما الثورة كما يفهمها الاخر « قتلا » ، الثورة عند الثائر الشريف او عند المتمرد الاخلاقي ان ابتعدت عن الشرف فقدت كل معانيهـا ، والشرف هنا لايعنـي الا أخلاقيتهـــا .

مطـاع صفدي

فـي مسرحيـة

الآكلون لحومهم

اول مسرحية في موضوعها وأسلوبها باللغة العربيـة
تقفز بطريقة المؤلف الى ذروة جديدة في ادب
الثورية العربيـة

اطلبها مـن جميع المكتبات

خلاصة القول ان المعنى الصحيح لقبول التضحيـــة بالواقع في سبيل المستقبل ، ان لاتكون التضحية علـــى حساب الاخلاق وان كانت هناك ضحايا فينبغي ان يثـــق الثائر من المستقبل لان وثوقه من امكان المستقبل هـــو العامل الاساسي الذي يجعل من ثورته شيئا ذا معنـــى انساني . وثورته لاتعني فقط امكانها ، بل تعني مقدرته هو على ان يعطيها للآخرين ، وتختفي التضحية كليـــا وتصبح غير ذات موضوع عندما لايثق الثائر بامكان السعادة .

***

اوضحنا في البداية ان التضحية ايثار ، وهذا الايثـــار يتعلق بالاخر ، اذ هو ايثار من اجل الاخر ، وعمل علـــى سعادته وقلنا انها وثوق بامكان الثائر بانه لاشيء الامايستطيع ان يعطيه للاخرين من قيم ، اي اذا كان الثائر انسانا يعي تماما نقصه ، وعدم تدبيره ويشعر شعورا قويا بامكانيـــة ان يكون اكثر من شيء من الاشياء التي لاتجهد نفسها كـــي توجد ، ويعمد لرفض ان يكون شيئا معينا ، ويؤثـــر ان يتمرد على من يحاول ان يحيله لشيء ما ، اي لمـــا هـــو فاقد للانسانية ، وعندما يشعر بان الاخرين لايستطيعـــون مثله ان يكونوا ذوات لا اشياء ، وان هز اعماقهم ، ورفعهم لمستواه الانساني لا يكون الا تبرير الواقع وبالتضحيةبالذات في سبيل الاخر ، هذا الاخر الذي يعطي وجودي كل كونه، والذي عن طريقه استطيع قهر الموت وعند ذلك يؤثر الثائر ان يدمر نفسه فيرتفع بالتدمير لمستوى القضية او الماهية التي يؤمن بها ، ويخلد عن طريق الاخرين ، بعد ان يوقظهم ويصبح مثلهم الذي يحتذى .

القضية هنا اصبحت ذات شقين ، الشق الاول يرتبـــط كليا بما قلناه من ايثار للمثل الاعلى ، وللفكرة والماهية ،على الواقع المشوه ، وهبة ثانيا لذات الانسان من اجل هـــذا المثل ، دون امل بالاسترداد ، هي فناء للذات من اجـــل الفكرة ، هي صوفية اخرى وعطاء من اجل هذا الاخر ، الذي ليس شقا اخر في صراع انا قطبه الاول ، بل هو وانا معـــا نعيش كلانا في الاخر ، لحب احدنا للاخر وايثاره له ، فهو اذن تلاق روحي غني ، وليس بصراع ، والتلاقي الروحـــي حينما يبلغ اعلى مستوياته يبلغ حد فناء الواحد في الاخر ، وتدمير جسد احدهما لايعني موته بل يعني انتقاله مـــن وجود جسدي الى وجود روحي قد يكون اغنى من الوجود الاول ، وعلى الاخص اذا ضخمته الاسطورة ليصبح المثـــل الاعلى والموجه لشعب في مرحلة من تاريخه .

اما تفضيل الواقع والسعادة الانية ، على المستقبـــل والتضحية ، ورفض حلم السعادة الكاملة لانها وهم ، كـــل هذا يجعل من السعادة تعلقـــا « بالآن » او « بالهنيهة » ، ويجعل طريق الوصول اليها اختلاس سويعات سعيدة من بين الآلام اللامتناهية ، وهي كل سعادة ممكنة فـــي عالـــم شقاء دائم .

وهذا الفهم تجده واضحا عند ديستوفسكي في كتابـــه « مذلون مهانون » ولنحاول ان نعرض لتحليل مبسط لهذه الرواية .

كل ابطال قصة ديستوفسكي يقعون في الحب ، ولكن الطرف الاخر في حب كل منهم يؤثر حب اخر ، « فانيا » يحب « ناتاشا » و « ناتاشا » تحب « اليوشا » و « اليوشا » يحب « كاتيا » ، و «فانيا » يحب مـــن قبل « هيلـــين » ، وهكذا كل منهم محبوب من قبل اخر لايحبه ، وكـــل منهم يفضل التضحية بحبه ، بسعادته ، في سبيل الاخر ، والحب هو الذي يعطي السعادة للانسان ، وهو لايعنـــي التعلق « بالآن » او « الهنيهة » بل يزداد الحبوينمو ويصبح انسانيا بمقدار مايكون تعلقا بالروح ، اي اذا بني علـــى « التضحية بالسعادة الانية » ، والحب ليس تعلقا بالغيـــب ولا بالخيال ، بل هو حب لهذا الانسان الموجود الواقعـــي الذي يتألم ويشعر ويخطىء .

وكان يمكن لابطال قصة ديستوفسكي ان يسعدوا جميعا بتلاقي كل محب بمحبه ، لو كان كل منهم قادرا علـــى التخلص من الخيال الذي يجعل في النهاية سعادتهم سرابا فالحب هنا ضد كل ماهو متعال وغيبي ، لانه بعيد كـــل البعد عن كل ماهو عقلي وجامد ، لانه موجه نحو هـــذا المخلوق المؤلف من لحم ودم .

والنتيجة التي نخلص اليها ، ان سعادته ليست فـــي تضحيته لان التضحية احيانا ، وان لم ترتفع لمستوى روحي غني ، تظل تعلقا بوهم ، اذ ان كل هذه التضحيات التـــي يبذلها كل إبطال الرواية لاتستطيع ان تمنحهم اية سعادة، والسعادة كان يمكن ان تكون لو لم يعمد الانسان للتضحية .

كأن السعادة هي هذه اللحظات الجميلة التي يختلسها الانسان ، من ضمن الالام اللامبررة التي تجعل من الحيـــاة مأساة بطلها الانسان وعدوه فيها كل شيء .

طارق الشريف

اطلب « الاداب »

في المملكة المغربية الشريفة

من وكيلها العام السيد احمد عيسى صاحب

مكتبة الوحدة العربية

١٧ شارع الملكـة (الاحباس)

الدار البيضاء